

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٥ - سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

سميت بها لتضمن آيتها بيان سبب تأخير البعث إلى يوم القيامة . لأجل اجتماع الأمم عاكمة إلى الله تعالى ، وفصله بينهم يوم القيامة . وهي من المطالب الشريفة في القرآن . وتسمى (سورة الشريعة) لتضمن آيتها وجه نسخ هذه الشريعة ، سائر الشرائع ، وفضلها عليها . وهو أيضا من المطالب العزيزة فيه . قاله المهايي .

وهي مكية . واستثنى بعضهم منها آية^(١) (قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا) فإنه قيل إنها مدنية ، نزلت في شأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كما سيأتي ، وآياتها سبع وثلاثون آية .

(١) [٤٥ / الجاثية / ١٤] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (حَمَّ)

[٢] (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

« حَمَّ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » قال المهايى : فعزته تقتضى إفاضة الحجج التي بها الغلبة على الخصوم . وإفاضة الكلمات التي يعسر الوصول إليها . وأنواع السمادات ، وحدة النظر ، والحكمة تقتضى محو الشبه وإزالة النقائص وإحراق الشقاوة وتمهيد الفكر . وقد نزل من مقام عزته بمقتضى حكمته ، لتكميل القوة النظرية والعملية ، ليتوسل بها إلى الكلمات الحقيقية ، من الإيمان والإيقان والعقل . وذلك بالنظر إلى أنواع الآيات المتضمنة للحجج ، ورفع الشبه . فمنها آيات الأجسام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ)

[٤] (وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

[٥] (وَأُخْتَلِفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ

الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

« إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَأُخْتَلِفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ » أى مطر . سمي رزقا لأنه سببه « فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » أى عن الله ، ما وعظهم به ودعاهم إليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ
وَأَيَّ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

« تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ » أى الدالة على كمال قدرته وحكمته وإرادته « تَتْلُوهَا عَلَيْكَ
بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَأَيَّ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ » أى بعد آياته ودلائله الباهرة .
وتقديم اسم الله للمبالغة والتعظيم . كما فى قولك (أعجبني زيد وكرمه) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَيَلُوكِ كُلُّ آفَّاكٍ أَثِيمٍ)

« وَيَلُوكِ كُلُّ آفَّاكٍ » أى كذاب يتكلم فى حق الله وصفاته على خلاف الدليل
« أَثِيمٍ » أى بترك الاستدلال ، لاسيما إذا لم يترك عن غفلة ، بل مع كونه ،

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ،
فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

[٩] (وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ، أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)

[١٠] (مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ، وَلَا يُعْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا

مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[١١] (هَٰذَا هُدًى ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ)

[١٢] (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا

مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ » أى لا بالإخبار عنها بالغيب ، بل « تَتَلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ » أى على إنكارها « مُسْتَكْبِرًا » أى عن قبولها ، لا يتأثر بها أصلاً « كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوعًا » استهانة بها « أَوْلَايِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مَن وَّرَاهِمِمْ جَهَنَّمَ » أى من بعد انقضاء آجالهم ، عذابها « وَلَا يُعْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا » أى من الأموال والأولاد « شَيْئًا » أى من عذاب الله « وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ » يعنى آلهتهم التى عبدوها ، أو رؤسائهم الذين أطاعوهم فى الكفر واتخذوهم نصراء فى الدنيا « وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَذَا » أى القرآن « هُدًى » أى بيان ودليل على الحق ، يهذى إلى صراط مستقيم من اتبعه وعمل بما فيه « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ أَلِيمٍ * اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِيَتَجَرَّىَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ » أى بتسخيره « وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » أى باستفادة علم وتجارة وأمتعة غريبة ، وجهاد وهداية وغوص فيه ، لاستخراج آليته ، وصيد منه « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى نعمة هذا التسخير . فتعبدوه وحده ، وتصرفوا ما أنعم به عليكم ، إلى ما خلقتم له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى آيات الله وحججه وأدلته . فيعتبرون بها ويتفكرون . قال الهامى : منها أن ربط بعض العالم ببعض دليل توحيد . وجعل البعض سبب البعض ، دليل حكمته . وجعل الكل مسخراً للإنسان ، دليل كمال جوده . فن أنكر هذه الآيات ولم يشكر هذه النعم ، استوجب أعظم وجوه الانتقام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قُلِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« قُلِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا » أى صدقوا بالله واتبعوك « يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ » أى لا يخافون بأس الله وتقمه ووقائمه بأعدائه « لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى من عملهم . ومنه العفو والتجاوز عن بعض ما يؤذى ويوحش . وقد روى أنها نزلت فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد شتمه رجل من غفار ، فهم أن يبطش به . فتكون الآية مدنية . قيل : يؤيده ما أورد على كونها مكية ، من أن من أسلم بها كانوا مقهورين فلا يمكنهم الانتصار منهم . والعاجز لا يؤمر بالعفو والصفح . وأجيب بأن المراد أنه يفعل ذلك بينه وبين الله بقلبه ، ليثاب عليه . مع أن دوام عجز كل أحد منهم غير معلوم . فالصواب أن الآية مكية كالسورة . ومعنى نزولها فى عمر - إن صح - صدقها على قضيتها . والاستشهاد بها لسماحه . كما حققنا المراد من النزول ، غير ما مره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تَرْجَعُونَ)

« مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ » أى لكونه افتسكها من العذاب « وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا » أى أساء عمله بمعصية ربه ، فعلى نفسه جنى ، لأنه أوبقها بذلك « ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تَرْجَعُونَ » أى تصيرون . فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ)

«وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ» أى التوراة «وَالْحُكْمَ» أى الفهم بالكتاب والعلم بالسنن التى لم تنزل بالكتاب «وَالنُّبُوَّةَ» أى جعلنا منهم أنبياء ورسلا إلى الخلق «وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ» يعنى المنّ والسلوى «وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ» أى على أهل زمانهم ، بإيتائهم ما لم يؤت غيرهم . كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَأَتَيْنَاهُمُ الْيُسْرَىٰ مِنَ الْأَمْرِ، فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

«وَأَتَيْنَاهُمُ الْيُسْرَىٰ مِنَ الْأَمْرِ» أى حججاً وبراهين وأدلة قاطعات، تأبى الاختلاف، ولكن أبوا إلا الاختلاف «فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ» أى ظلماً وتعدياً منهم، لطلب الحظوظ العاجلة «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» أى بالمؤاخظة والمجازاة. قال ابن كثير: وهذا فيه تحذير لهذه الأمة، أن تسلك مسلكهم ، وأن تقصد منهمجهم . ولهذا قال جل وعلا :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبَعُهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

«ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ» أى على طريقة وسنة ومنهاج من أمر الدين، الذى أمرنا به من قبلك من رسلنا «فَاتَّبَعُهَا» أى تلك الشريعة الثابتة بالدلائل والحجج «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» يعنى المشركين وماهم عليه من الأهواء التى لا حجة عليها.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (إِنَّهُمْ لَن يَغْنُؤُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ،

وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ)

«إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» أى لن يدفعوا عنك من غضبه وعقابه شيئاً ما، «وَأِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» أى أعوان وأنصار على المؤمنين وأهل الطاعة . أو فى التحزّب والتقوى . ولكن ماذا تغنيهم ولايتهم لبعضهم وقد تحلّت عناية الله ونصرته عنهم؟ «وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ» أى من اتقاه بعبادته وحده، وخشيته بكفائته من بغى عليه، وكاده بسوء . والأظهر تفسير الآية بآية^(١) «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطُّغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

[٢١] (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

« هَذَا » أى القرآن « بَصَائِرُ لِلنَّاسِ » أى يبصرون به الحق من الباطل، ويعرفون به سبيل الرشاد . قال الزمخشري : جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع، بمنزلة البصائر فى القلوب كما جعل روحاً وحياة . أى فهو تشبيهه بليغ « وَهُدًى » أى من الضلالة « وَرَحْمَةٌ » أى من العذاب لمن آمن وأيقن « لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » أى يطلبون اليقين « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ » أى اكتبوا سيئات الأعمال « أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى من عدم التفاوت . قال الزمخشري : والمعنى إنكار أن يستوى السيئون والحسنون حياً ، وأن يستووا مماتاً . لافتراق أحوالهم أحياء حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات ، وأولئك على ركوب المعاصى . ومماتاً حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والوصول إلى ثواب الله ورضوانه، وأولئك على اليأس من رحمة الله والوصول إلى هول ما أعد لهم . انتهى .

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] .

وزد عليه : حيث عاش هؤلاء على الهدى والعلم بالله وسنن الرشاد وطمانينة القلب ، وأولئك على الضلال والجهل والعيث بالفساد واضطراب القلب وضيق الصدر ، بعدم معرفة المخرج المشار إليه بآية^(١) (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

« وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » أى بالحكمة والصواب. قال ابن جرير^(٢) : أى للعدل والحق ، لا لما حسب هؤلاء الجاهلون بالله ، من التسوية بين الأبرار والفجار . لأنه خلاف العدل والإنصاف « وَلَتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » قال الزمخشري : معطوف على (بالحق) لأن فيه معنى التعليل . أو على معلى محذوف ، تقديره ، خلق الله السموات والأرض ليدل بها على قدرته ، ولتجزى كل نفس « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » أى في جزاء أعمالهم .
القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

[٢٤] (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، وَمَا لَهُمْ بِدَلِيلٍ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)

« أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ » أى من ترك متابعة الهدى إلى متابعة الهوى . فكأنه يعبد . فجعله لها تشبيه بليغ أو استعارة . قال القاشاني : الإله العبود ، ولما أطاعوا الهوى فقد عبدوه وجعلوه إلهاً . إذ كل ما يعبد الإنسان بحبته وطاعته ، فهو إله ولو كان

(١) [٢٠ / طه / ١٢٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٩ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

حجراً! « وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ » ، أى عالماً بحاله ، من زوال استعداده، وانقلاب وجهه، إلى الجهة السفلية . أو مع كون ذلك العابد للهوى عالماً بعلم ما يجب عليه فعله في الدين . على تقدير أن يكون (عَلَىٰ عِلْمٍ) حالاً من الضمير المفعول في (أَضَلَّهُ اللَّهُ) لامن الفاعل . وحينئذ يكون الإخلال لمخالفته علمه بالعمل ، وتخلف القدم عن النظر ، لتشرب قلبه بحجة النفس وغلبة الهوى . أو على علم منه غير نافع . لكونه من باب الفضول . ليس فيه إلى الحق سلوك ووصول « وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ » أى بالطرد عن باب الهدى ، والإبعاد عن محل سماع كلام الحق وفهمه ، لمكان الرين وغلظ الحجاب ، فلا يعقل منه شيئاً « وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاةً » أى عن رؤية حجج الله وآياته « فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ » أى فمن يوفقه لإصابة الحق بعد إضلال الله إياه « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا » أى ما الحياة أو الحال غير حياتنا هذه التى نحن فيها « نَمُوتُ » أى بالموت البدنى الطبيعى ، « وَنَحْيَا » أى الحياة الجسمانية الحسية ، لاموت ولا حياة غيرهما « وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ » أى مرّ الليالى والأيام وطول العمر « وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » أى : وما يقولون ذلك عن علم ولكن عن ظن وتخمين . و (ذلك) إشارة إلى نسبة الحوادث إلى الدهر ، أو إلى إنكار البعث ، أو إلى كليهما . قال الزمخشريّ : كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالى هو المؤثر فى هلاك الأنفس ، وينسكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله . وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان . وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام ^(١) (لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر) أى فإن الله هو الآتى بالحوادث لا الدهر . انتهى .

وقال الخطابىّ ، معناه أنا صاحب الدهر ومدبر الأمور التى تنسبونها إلى الدهر . فنسب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور ، عاد سبه إلى ربه الذى هو فاعلها . وإنما الدهر

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٢٢٩ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ)

عن أبى قتادة .

زمان جعل ظرفاً لمواقع الأمور . وكان عادتهم إذا أصابهم مكروه أضافوه إلى الدهر فقالوا (بؤساً للدهر) و (تبا للدهر) . انتهى .

قال ابن كثير : وقد غلط ابن حزم . ومن نحو نحوه من الظاهرية ، في عدّهم الدهر من الأسماء الحسنی ، أخذاً من هذا الحديث . انتهى .

تنبيه :

في هذه الآية ردّ على الدهرية ، وهم المعطلة ، بأن متمسكهم ظن وتحمين . لم يشم رائحة اليقين . وما هذا سبيله ، فباب القبول في وجهه مسدود^(١) (إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) قال الشهرستاني في معطلة العرب : فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة ، وقالوا بالطبع المحيي والدهر المميت . وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد^(٢) (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا) إشارة إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفلي . وقصر الحياة والموت على تركيبها وتحللها . فالجامع هو الطبع ، والمهلك هو الدهر (وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) فاستدل عليهم بضرورات فكرية ، وآيات فطرية ، في كم آية وكم سورة فقال تعالى^(٣) (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ، مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ)^(٤) (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) وقال^(٥) (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ) وقال^(٦) (قَالَ أَبَيْنَكُمُ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ) وقال^(٧) (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ) فثبتت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق . فإنه قادر على الكمال ، إبداء وإعادة . انتهى .

ولى في الرد على الدهريين ، وهم الماديون والطبيعيون ، كتاب وسمّته (دلائل التوحيد) فليرجع إليه المرید ، فائس وراءه ، بحمده تعالى ، من مزيد .

(١) [١٠ / يونس / ٣٦] . (٢) [٤٥ / الجاثية / ٢٤] .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٨٤] . (٤) [٧ / الأعراف / ١٨٥] .

(٥) [١٦ / النحل / ٤٨] . (٦) [٤١ / فصلت / ٩] . (٧) [٢ / البقرة / ٢١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ ءَايٰتُنَا بَيِّنٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتْهُمْ ءِلَّا اَنۡ قَالُوۡۤا اُنۡتَوۡا بِآبَآئِنَا اِنۡ كُنۡتُمْ صٰدِقِيۡنَ)

« وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ ءَايٰتُنَا بَيِّنٰتٍ » أى بأن الله باعث خلقه يوم القيامة « مَّا كَانَ حُجَّتْهُمْ ءِلَّا اَنۡ قَالُوۡۤا اُنۡتَوۡا بِآبَآئِنَا اِنۡ كُنۡتُمْ صٰدِقِيۡنَ » أى انشروهم احياء ، حتى نصدق ببعثنا احياء بعد مماتنا . وإطلاق الحجة على ذلك ، إما حقيقة بناء على زعمهم ، فإنهم ساقوه مساق الحجة ، أو هو مجاز تهكما بهم . كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة . بمعنى أن لا حجة لهم البتة . وفيه مبالغة لتزليل التضاد منزلة التجانس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قُلِ اللّٰهُ يُحۡيِيۡكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُجۡمَعُكُمْ ؕ اِلَىٰ يَوْمِ الْقِيٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيۡهِ وَاَلۡكِنۡ اَۡكۡثَرُ النَّاسِ لَا يَعۡلَمُوۡنَ)

« قُلِ اللّٰهُ يُحۡيِيۡكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُجۡمَعُكُمْ ؕ اِلَىٰ يَوْمِ الْقِيٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيۡهِ وَاَلۡكِنۡ اَۡكۡثَرُ النَّاسِ لَا يَعۡلَمُوۡنَ » أى قل لهم في جواب قولهم (وَمَا يَهۡلِكُنَا اِلَّا الدَّهۡرُ): قل الله يحييكم ثم يميتكم ، لا الدهر . لما عرف من وجوب رجوع العالم إلى واجب الوجود ، هو سبب الأسباب ، ومصدر الكائنات . أو قل لهم (في جواب إنكارهم البعث) : بأن من قدر على الإبداء ، قدر على الإعادة . والحكمة اقتضت الجمع للمجازاة ، على ما مرّ مرارا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَلِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالۡاَرۡضِ ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنۡخِصِرُ الْمُبۡطِلُوۡنَ)

« وَلِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالۡاَرۡضِ » أى فلا مالك غيره ، ولا معبود سواه « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنۡخِصِرُ الْمُبۡطِلُوۡنَ » أى الذين أنوا بالباطل في أقوالهم وأفعالهم ، وهم عبدة غيره تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٢٩] (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٣٠] (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)

[٣١] (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ)

« وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً » أى باركة، مستوفزة على الركب لاجراك بها . شأن الخائف المنتظر لما يكره . وذلك عند الحساب أوفى الموقف الأول ، وقت البعث قبل الجزاء « كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا » أى اللوح الذى أثبت فيه أعمالها . ويعطى يمين من كان سعيداً . وشمال من كان شقياً « الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ » أى يشهد عليكم بما عملتم بلا زيادة ولا نقصان . وإنما أضاف صحائف أعمالهم إلى نفسه تعالى ، لأنه أمر الكتبة أن يكتبوا فيها أعمالهم « إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ » أى نستكتب الملائكة « مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى ما صالح به حالهم فى المعاد الجسماني « فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ » أى فى جنته « ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا » أى يقال لهم « أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ » أى بكسب الآثام ، والكفر بالله ، وعدم التصديق بعماد ، ولا الإيمان بشواب وعقاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ)

« وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ »
 أى : أى شئء هى ؟ أى : لانستيقن بها « إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ » أى
 انها كائنة وآتية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)
 [٣٤] (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ

وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ)
 [٣٥] (ذَالِكُمْ بِأَنَّكُمْ أَتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ،
 فَأَلْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا لَهُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

« وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا » أى قبائح أعمالهم ، أو عقوبات أعمالهم السيئات « وَحَاقَ
 بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » يعنى الجزاء « وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ
 يَوْمِكُمْ هَذَا » أى نترككم فى العذاب ، ترك ما ينسى ، كما تركتم التأهب له . ف (نَنسِكُمْ)
 استمارة أو مجاز مرسل « وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ * ذَالِكُمْ بِأَنَّكُمْ
 أَتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا » أى خدعتكم حتى آثرتموها على الآخرة
 وزعمتم أن لاهياة سواها « فَأَلْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا » أى من النار « وَلَا لَهُمْ يُسْتَعْتَبُونَ »
 أى ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أى رضوه . من (الإعتاب) وهو إزالة العتب ، كناية عن
 الإرضاء . أو : لاهم يردون إلى الدنيا ليتوبوا ويراجعوا الإنابة ، فما بعد الموت مستعتب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[٣٧] (وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

« فَلِلَّهِ الْحَمْدُ » أى الثناء الكامل . قال ابن جرير^(١) : أى فله الحمد على نعمه وأياديه عند خلقه . فإياه فاحمدوا أيها الناس . فإن كل ما بكم من نعمة فمنه ، دون ماتعبدون من دونه ، من آلهة ووثن « رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى الاستعلاء ونهاية الترفع والكبر على كل شيء . وغاية العلوّ والعظمة باستغنائاه عنه وافتقاره إليه « وَهُوَ الْعَزِيزُ » أى القوى القاهر لكل شيء « الْحَكِيمُ » قال القاشانى : أى المرتب لاستعداد كل شيء ، بلطف تدييره ، المهيء لقبوله ، لما أراد منه من صفاته ، بدقيق صنعته ، وخفى حكمته (لا إله إلا هو رب العالمين) .

وافق الفراغ من تفسير هذه السورة قبيل ظهر الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة عام ١٣٢٦ بمنزلة بدمشق الشام . بقلم جامع جمال الدين القاسمى . وهذا آخر الجزء العاشر . ويليه الجزء الحادى عشر . وأوله سورة الأحقاف . والحمد لله وحده .

تم الجزء الرابع عشر . ويليه ، إن شاء الله تعالى ، الجزء الخامس عشر . وفيه تفسير :
 ٤٦ - سورة الأحقاف ، ٤٧ - سورة محمد ، ٤٨ - سورة الفتح ، ٤٩ - سورة الحجرات ،
 ٥٠ - سورة ق ، ٥١ - سورة الذاريات ، ٥٢ - سورة الطور ، ٥٣ - سورة النجم ،
 ٥٤ - سورة القمر ، ٥٥ - سورة الرحمن .

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .